العلاقة بين الحضارتين العربية والغربية:
من التصادم والخصام إلى ضرورة التفاهم والوئام

د. ميلود حميدات
جامعة الأغواط

إن علاقة أي حضارة بأخرى هي علاقة صدام وخصام تارة، وسلام ووئام تارة أخرى. وفي هذا التفاعل الطبيعي يحدث حتما التأثير والتأثر، ومع ذلك فلا شك أن لتلك العلاقة نتائج إيجابية، وأخرى سلبية. وفي هذا البحث نتناول بالتحليل العلاقة بين الحضارة العربية الإسلامية، والحضارة الغربية، مبرزين مميزات كل حضارة، وحالات التماس والتفاعل التاريخية قديما، ودعوات الحوار والتفاهم الحديثة، والتي لا مناص منها لأنه لا يمكن نسخ وإلغاء هوية أي حضارة حتى ولو ضعفت أو عانت من أزمات أو ظروف قاهرة.

خصائص الحضارة العربية الإسلامية: ترتبط الحضارة العربية الإسلامية بالدين الإسلامي حيث لم يبدأ العرب إسهامهم الغزير في نمو الحضارة الإنسانية إلا بمجيء الإسلام. كما أن انتصار هذه الحضارة وانتشارها خارج الجزيرة العربية قد تمّ باسم الإسلام وعلى أسس فكرية وخلقية مستمدة من قيمه ومبادئه. إذ امتاز الإسلام بأنه دعوة عالمية، وهداية للجميع، دون تفضيل لجنس أو فرد، ولا تمييز لشعب دون غيره، ومقياس التفاضل الوحيد هو العمل الصالح المفيد، مع مساواة مطلقة بين الناس أمام الخالق، لأنهم خلقوا من أصل واحد، وعليه تنتفي كل نزعة عنصرية أو عرقية، لقوله تعالى: **(يا أيها الناس، إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إنّ أكرمكم عند**

الله أتقاكم، إنّ الله عليم خبير.)[1]. والتزم المسلمون الأوائل بقيم الإسلام عقيدة وشريعة، فكان لذلك دوره الحاسم في انتشار الإسلام ومبادئه، ولم يكن الإكراه وسيلة، ولا القوة منهجا، بل الإقناع والتسامح، واحترام عقائد وخصوصيات الشعوب الأخرى. حيث حافظت بعض الشعوب غير العربية على خصوصياتها الثقافية واللغوية مع اعتقادها بالإسلام، كما حافظ البعض من المسالمين والمتعاهدين من المسيحيين واليهود على دياناتهم، ووجدوا الرعاية والحماية في ظل الحضارة العربية الإسلامية إذ حثت النصوص الشرعية على احترام وحماية أهل الذمة وروي عن النبي عليه الصلاة والسلام: "من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة"[2].ويعود ذلك إلى تسامح الإسلام كدعوة لهداية البشر، رغم مصدره الإلهي فهو خطاب موجه إلى كائن صاحب عقل وإرادة وهي دعوة تحترم حرية الإنسان، فتحثه على استعمال عقله وإرادته ليتحمل مسؤوليته، لقوله تعالى: **(قل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)**(سورة الكهف 29.). وإذا كانت رسالة الإسلام كما أشرنا سابقا دعوة عالمية فقد أثرت على الفكر الإسلامي، حيث خرج المسلمون إلى الناس جميعا يدعون إلى العلم والتقدم، والعقل والحق والعدالة وسعادة الإنسانية، وسرعان ما تبلورت المبادئ الفكرية العامة للإسلام، وظهرت قواعد التفكير الإسلامي الذي امتاز بأنه يستمد مبادئه من الإسلام، وقد أثبتت النصوص الشرعية مجموعة من القواعد التي امتاز بها الإسلام وبالتالي الفكر الإسلامي:

---

[1]- قرآن كريم، سورة الحجرات 13.
[2]- حديث نبوي صحيح، رواه البخاري، رقم الحديث في صحيح البخاري 1995

1)الإسلام دين العقل: حث القرآن الكريم على استخدام العقل الفطري وإعمال الذهن، والتأمل في الكون، إذ قامت الحضارة العربية الإسلامية على احترام وتمجيد العلماء والعقلاء، وقد ذكرت مادة العقل في القرآن الكريم تسعا وأربعين مرة بصيغ مختلفة، (تعقلون، يعقلون، عقلوه...)، كما وردت آيات عديدة فيها ذكر (أولوا الألباب) وعددها إحدى عشر آية، كما حثت آيات كثيرة على النظر في الكون والإنسان والطبيعة ولا يكون النظر إلا بالعقل. وهذا ما يجعلنا نستنتج عقلانية القرآن الكريم والتي برزت عند مفكري الإسلام.

2)الإسلام والكون: كل ما في الكون مسخر للإنسان الذي هو سيد المخلوقات في الكون، وما عليه إلا أن يسعى لمعرفة قوانين الطبيعة الثابتة بالملاحظة والتجربة والاستدلال، لأن مظاهر الطبيعة آيات، "والآية ظاهرة طبيعية ونفسية، وكلاهما موضوع تأمل واستبصار."[1]، لقوله تعالى: **(إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب.)**(سورة آل عمران190)

ندرك من هذا اهتمام الإسلام بالطبيعة، لأن الحضارة العربية الإسلامية حضارة مبنية على الإقبال على الطبيعة ودراستها وتأمل ظواهرها والاستفادة منها.

3) إنسانية الإسلام: سبق أن أثبتنا عالمية الإسلام، وأهدافه السياسية لهداية الإنسان، أما اهتمام الإسلام بقيمة الإنسان وكرامته، فقد أكدت النصوص الشرعية ذلك، حيث " خلق في أحسن تقويم خليفة الله في الأرض، وكرم في البر والبحر، وهب العلم والحواس والقلب والفؤاد...تسجد له الملائكة، ويعاقب من يعصى السجود، أعطى له الوحي وأصبح كليما لله،...حرا مسؤولا ساميا في

---

[1]- حسن حنفي: الفكر **الإسلامي والتخطيط لدوره الثقافي المستقبلي**، ندوة الفكر الإسلامي، في الخطة الشاملة للثقافة العربية، ذات السلاسل، الكويت، المجلد3، القسم1، ط1986، ص29.

الدنيا، بصيرا على نفسه[1]. " ثم جاءت بعد ذلك بقرون الدساتير الغربية لتقر بكثير ما جاء في الإسلام من مبادئ، ومن ذلك يدرك كل متأمل منصف أسبقية وأصالة الإسلام في معالجة حقوق الإنسان.

4)الحرية في الإسلام: تقوم عقيدة الإسلام على مبدأ التوحيد، ولا يكون التوحيد إلا إذا تحرر الإنسان من عبادة أي شيء سوى الله، والتحرر من الخوف من غير الله، إذ لا قوة ولا سلطة تخيف أو ترزق، أو تسلب أو تملك ضرا أو نفعا للإنسان إلا الله، وهنا تكمن أسمى أنواع الحرية لأنها تؤدي إلى التحرر الوجداني وتحقيق كلمة التوحيد لا إله إلا الله، فتسقط كل الأوثان والمعبودات التي تتحكم في حرية الإنسان. ولذلك ارتبط التكليف بالحرية، ورفع التكليف عن فاقد الحرية والعقل، فلا صدق ولا حق ولا إيمان، دون حرية وجاء قول الحق مؤكدا على حرية إرادة الإنسان: (**وأن ليس للإنسان إلا ما سعى.**)(سورة النجم39). وقوله أيضا: (**لا إكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغي.**)(سورة البقرة256)،وقول عمر بن الخطاب(رضي الله عنه): "متى استبعدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا"، ومن هذا ندرك كيف تقوم عقيدة الإسلام على الحرية.

5)المساواة في الإسلام: تقوم العدالة الاجتماعية في الإسلام على التحرر الوجداني، والمساواة، والتكفل الاجتماعي[2]. ولما كانت المساواة ضرورية لقيام المجتمع العادل، فقد حرص الإسلام على ذلك كثيرا، "وينص القرآن نجد أن المالك الوحيد هو الله وحده، والإنسان مستخلف فيما أودعه الله بين يديه، له حق التصرف والانتفاع والاستثمار، وليس له حق الاستغلال والاحتكار

---

[1]- حسن حنفي، مرجع سابق، ص32

[2]- أنظر سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، دار الشروق، بيروت، ط9، 1983

والاكتناز..."[1]. كما حرم القرآن تركز المال في فئة بعينها حتى لا يكون المال دولة بين الأغنياء، وفرض حقوق معلومة للفقراء في أموال الأغنياء، وسن قواعد دقيقة في الإرث لتفتيت الملكية وتقسيم الثروة. ويوسع الإسلام معنى المساواة إلى مبدأ الإخاء الإنساني، فتكون علاقة الإنسان بأخيه الإنسان علاقة مساواة ومحبة وأخوة... فيتحقق العدل ويسود الحق، وتنمحي كل آثار الظلم والإجحاف فلا تمييز بين فرد وآخر لأي اعتبار بسوى التقوى والعمل الصالح. إن اختيارنا هذه المميزات التي امتاز بها الفكر الإسلامي، لا يعبر إلا على جزء بسيط من قوة هذا الفكر، وسبقه لكثير من الإيديولوجيات والفلسفات الغربية الحديثة في تقرير مبادئ الحضارة وقد استمد الفكر الإسلامي ذلك من الخصائص العامة للإسلام والتي تمتاز بعقيدة التوحيد وإنسانية المبادئ، وشمولية الرسالة، ووسطية وواقعية التشريع، ووضوح القواعد، ومرونة التطبيق. نود الإشارة هنا إلى أن هبوط مستوى الأداء الحضاري، الذي يعيشه العرب والمسلمون لا يجوز مطلقا إرجاعه إلى خصائص الحضارة العربية الإسلامية التي ذكرناها سابقا، وخاصة الجانب التشريعي سواء في فترات انقسام العالم الإسلامي إلى دويلات وطوائف مذهبية متناحرة، وسيطرة المفاهيم الخاطئة وسيادة الروح اللاعقلانية، والنظرة الغيبية ولا نقصد ذلك في مجال العقائد الإيمانية، وإنما نسجل ذلك كظاهرة سلبية في التعامل مع الظواهر الطبيعية والاجتماعية المعقولة والمحكومة بالسنن والقوانين، والتي أشرنا سابقا إلى حث الإسلام على النظر فيها بالعقل.

---

[1]- حسن حنفي، مرجع مذكور سابقا، ص32

وقد عملت كثير من العوامل الداخلية والخارجية على إحداث القطيعة بين الدين والعلم، ولم يكن ذلك من طبيعة الإسلام أبدا، وإنما ظروف تاريخية وفكرية أدت إلى حالة التخلف التي نعيشها.

ومن بين تلك الظروف الصراع الحضاري بين حضارتنا وحضارة الغرب، وبالتالي تأثير المراحل الطويلة للاستعمار الغربي للعالم الإسلامي، ثم عمل الغرب المتواصل لتحطيم الحضارة العربية الإسلامية، مستخدما وسائل من بينها الغزو الفكري الذي يهدف إلى تعطيل أي مشروع حضاري يهدف إلى رجوع المسلمين إلى قيم الإسلام ومبادئه لاستعادة مجدهم الحضاري، ونتج عن التدخل الغربي انقسام العالم الإسلامي بين مشروعين، وأدى ذلك إلى التردد بين (العزلة الحضارية) أو(التبعية الحضارية) وغاب النموذج الحضاري العقلاني الأصيل. إذ أن هذا التردد بين الانغلاق على الذات، أوتبعية الغير ولّده دائما التعامل مع الغرب.

خصائص الحضارة الغربية: نحاول أن نحدد طبيعة الحضارة الغربية الحديثة ومميزاتها، لإثبات العلاقة بين الحضارتين، وحضور الغرب في جميع مشاريعنا المعاصرة. وهذا ما يمكن أن نطلق عليه الإحلال أو المسخ الثقافي . حيث تشوّه الهوية للثقافات المحلية، ويقدم هذا الاعتداء الثقافي باسم التحضير والتمدين، ومحاربة التخلف والجهل والتفكير البدائي، لأنه كثيرا ما نجد في أدبيات الاستعمار مصطلحات البدائية، واللاعقلانية والتخلف، والسذاجة، وهي صفات تطلق على الشعوب المستعمَرة.

من هذه الخصائص تبرز لنا طبيعة الحضارة الغربية ونظرتها للآخر، ومنه يبدو لنا الصدام بين ما أصطلح عليه بالشرق والغرب، والذي يبرز في أعلى صورة

الرافضة لهيمنة الحضارة الغربية على الحضارة العربية الإسلامية، وهذا ما يفسر لنا إلى حد كبير معاداة الغرب للإسلام والمسلمين، وذلك لأن طبيعة الحضارة الغربية بوصفها « حضارة إحلالية تهدف إلى نسخ الأنماط الحضارية القائمة، وتمثلها وقولبتها في الحضارة الجديدة قيما وأهدافا وأساليب.[1] مع أننا ندرك أن الخلاف الحضاري ليس خلافا في الآلات، فالناس جميعا يديرون الآلات بطريقة واحدة، والصناعات تتماثل بين كثير من الأمم، دون أن تبرز التمييز، إنما يختلف الناس حضاريا باختلاف نظرتهم للوجود، نظرتهم للإنسان، علاقة هذا الإنسان بالإنسان، لذلك لا يمكن أن نقرّر انتماءنا لحضارة الغرب، ليتم قبولنا في حضارة أوربا، ولما كان ذلك مستحيلا، فإن التنكر لحضارتنا لا يؤدي إلا إلى العبودية والضياع.

إن مميزات كل حضارة من الحضارتين، العربية الإسلامية والغربية جعل من الاحتكاك والتفاعل والتأثير، أمرا حتميا ومنذ زمان بعيد، ولكن حديثا أضحى اللقاء الحتمي بين الثقافتين الغربية والعربية الإسلامية، رغم بعض إيجابياته أخطر لقاء بين ثقافتين وحضارتين، وأسباب ذلك عديدة.

- فالحضارة الغربية أضحت كونية بقوتها المادية، حيث توسعت لتشمل الكرة الأرضية، وهي تسعى للسيطرة حتى على الفضاء.
- وهي ذات تأثير كبير على الحضارة الإنسانية في أغلب جوانبها.

[1]- حامد صادق سلمان، **الغزو الثقافي وأبعاده المجتمعية**، دراسة في مجلة:دراسات عربية، عدد8/7، بيروت، 1988، ص72.

- أصبح تأثيرها لا يقتصر على التأثير المتبادل المألوف بين الحضارات، ولكنه يتصل بإلغاء الأنماط الحضارية القائمة وتمثلها، ضمن إطارها الحضاري الجديد، وتنميط قيم الإنسان وأهدافه ووسائله واتجاهاته.

- وهي تقوم على إمكانية متقدمة من النتائج العلمية، وتطبيقاتها التقنية الخطيرة.

- كما أنها مادية تستهدف إشباع حاجات الإنسان الحيوية والاستهلاكية الأساسية بشكل أحسن ودون حدود.

- وهي ذات بعد مركزي، أي لا ترى إلا ذاتها، حتى أصبحت هي ذاتها أسيرة قدرتها الذاتية.

- وهي أخيرا تستعمل وسائل مادية قاهرة إعلامية ومالية، مع تنظيمات شمولية، وقدرات تدميرية كبيرة[1].

إن هذه المميزات الهجومية الغازية هي التي تجعل من الغزو الفكري مدمرا، ومشوها لثقافات الأمم، رغم أن كل أمة ترث تميزها الثقافي، باعتبار أن ثقافة أي أمة لا تنمو بعيدا عن الظروف والميول الخاصة للإنسان الذي يوجدها وبالطبع لا يمكن لأي أمة أن تنسلخ من وجودها هذا، على الرغم من أنها قد « تتنكر له أحيانا أو تتبرأ منه أحيانا أخرى، ولكن تحمل بصماته أبد الدهر، والأمم الباقية هي التي تجعل وجودها فوق كل التفصيلات...والحضارة المزدهرة هي التي توفق إلى فلسفة...أودين...أو نظام يحمل وجودها وينشر هذا الوجود[2].»

---

[1]- أنظر التقرير النهائي- تحقيق الأمن الثقافي- في الخطة الشاملة للثقافة العربية، مرجع مذكور سابقا، المجلد1، ص142

[2]- جلال كشك: الغزو الفكري، دار الشروق، بيروت، ط2، 1975، ص39

ولأن حضارتنا تملك من المقومات التي تميزها عن الحضارة الغربية كثيرا، فإنه لا يمكن أن تنحل وتزول مميزاتها في الحضارة الغربية.

العلاقة بين الحضارتين والحاجة إلى التعاون:

إذ كل أمة في العالم تعتز بأصالتها وتميزها، ومقوماتها الثقافية والحضارية والفكرية، فكيف بأمة طورت العلوم والمعارف وأفادت بها العالم، وقد استفادت من إبداعها العلمي والفكري أوربا لتقيم حضارتها ومجدها المادي الذي تفتخر به اليوم وتنسبه لأبنائها دون غيرهم، ودون إنصاف الحضارات الأخرى، كما يثبت تاريخ العالم. وإذا تأملنا بعمق وبموضوعية العلاقة بين الحضارتين وجدنا العلاقة ممتدة في الزمان، والتأثير الكبير للحضارة الإسلامية على الحضارة الغربية لا يمكن بأي حال من الأحوال إنكاره أو التشكيك فيه، ولا مراء في أن الكثير من النظريات والآراء العلمية، إنما تنسب إلى العلماء الغربيين ظلما، فقد سبق العرب غيرهم إليها، ويعود ذلك الإجحاف في اعتقادي إلى أن كثيرا من المخطوطات لم تحقق بعد، أو استحوذ عليها الغرب فطمسها وأخفى كنوزها قديما لسيطرة النزعة العنصرية التبشيرية، وكثيرا مما عرفناه عن هذا الإبداع كان عن طريق بعض المستشرقين، ويبقى في اعتقادنا ذلك العمل مبتورا، إذا لم يقم العلماء العرب والمسلمون بإحياء تراثهم العلمي، وتصحيح الكثير من الأخطاء التي روّج لها المستشرقون. لكن هذا لم يمنع كثيرا من المنصفين في تاريخ العلوم من الاعتراف بأصالة وعظمة التراث العلمي في الحضارة العربية الإسلامية حيث قال (جورج سارتون- George Sarton) (1884- 1956م):

« كان لابد من ظهور إبن الهيثم (ت430هـ- 1039م) وابن سينا (ت428هـ-

1037)، والبيروني (ت449هـ 1048م) وغيرهم من أعلام العرب لكي يتسنى ظهور جاليلو(ت1642م)، وكبلر (ت1630م)، وكوبرنيق (ت1543م)[1].

وشهادة أخرى لا تقل أهميتها يضيفها (سارتون) « حقق المسلمون عباقرة الشرق أعظم المآثر في القرون الوسطى، فقد كتبت أعظم المؤلفات قيمة، وأكثرها أصالة، وأغزرها مادة في تلك العصور باللغة العربية التي كانت من القرن الثامن إلى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي لغة العلم الارتقائية للجنس البشري.[2].. وهذا ما يفسر على الأقل اهتمام الغربيين بالإسلام والمسلمين ولغتهم وذلك لأنه الوسيلة الوحيدة للإلمام بثقافة وحضارة المسلمين، وكذلك ما في هذه الحضارة من كنوز علمية وفكرية عظيمة، وشخصيات فذة من العلماء والفلاسفة والمفكرين، إذ قدمت الحضارة العربية الإسلامية العلوم والمعارف إلى أوربا لقرون طويلة، فقد ظلت الجامعات في الأندلس وصقلية مراكز التقاء بين العلماء العرب والعلماء الأوربيين، وظلت الكتب العلمية وخاصة كتب الطب العربي والرياضيات تدرس في الجامعات الأوروبية، التي كانت تحفز طلبتها لتعلم العربية لغة العلم والمعرفة.

ولكن لظروف تاريخية سياسية واجتماعية، وعوامل داخلية وخارجية تعرضت هذه الحضارة لكثير من المحن والمصائب، التي أثرت على عطائها وريادتها مع بقائها صامدة أمام تلك التحديات الجسام.

وهذا يدل على أن الحضارة العربية الإسلامية تحمل معطيات التحدي والقوة والتجدد، وإنها لا يمكن أن تموت، بل تحتاج إلى إحياء ما فيها من عناصر القوة

---

[1]- جورج سارتون: تاريخ العلم، نقلا عن عبد الله الدفاع: أثر علماء العرب والمسلمين في تطور علم الفلك، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1985، ص152

[2]- المرجع نفسه، ص153

والتجديد لتعود إلى سابق عهدها مبدعة مجددة، وتقدم بذلك حلولها لمشاكله، بل حلولا لمشاكل الإنسان المعاصر الذي يعاني أمراضا، ومشاكل الحضارة المادية الغربية الحديثة التي رغم قوتها وسيطرتها المادية، فإن إخفاقاتها كثيرة في المجال الروحي والأخلاقي.

حيث تعيش أوربا اليوم ضياعا روحيا، فالإنسان الغربي بحاجة إلى الاستقرار النفسي، والعلاقات الإنسانية المتحررة من النزعة المادية، إذ يقول (مالك بن نبي) (1905م- 1973م) مشيرا إلى مأساة الغرب: "وها نحن في القرن العشرين أمام مأساة أخرى، مأساة المجتمع الغربي، الذي يمر بدوره بأزمة فتور، لأنه فقد مبرراته التقليدية...عندما كانت أوربا تؤمن بالتقدم العلمي، وبالحضارة، وبالاستعمار كرسالة حضارية، فكانت هذه مبررات تحرك وتوجه كل الطاقة الاجتماعية"[1]. وما إن حدثت الحرب العالمية الثانية، وتقاتل أبناء الحضارة الواحدة، تغيرت المعطيات، وأصيبت أوربا بصدمة عنيفة كان لها تأثير اجتماعي ونفسي على الأوربي من الناحية الأخلاقية.

وبدأت الشعوب المستعمَرة تثور مطالبة بحريتها وتقرير مصيرها، وتحول مفهوم الاستعمار التحضيري إلى أكذوبة، وتم تجاوز النظرة المحتقرة للشعوب، والتصنيفات العرقية، وأصبحت هذه المفاهيم ممقوتة حتى عند الأوربي نفسه، وخاصة أنه عاش ويلات الحروب وتأثيرها، « وقد نجد أثر هذه الأزمة حتى في الأدب الغربي...أي الأدب الوجودي، فهو في الواقع تدارك لفقدان المبررات[2].» أو تعبير عن الحيرة والقلق الذي يعيشه الإنسان الغربي بدون شك. وقد عرف

---

[1]- مالك بن نبي: **تأملات**، دار الفكر، بيروت، 1979، ص41

[2]- المرجع نفسه، ص42.

المجتمع الإسلامي نفس هذه المشاكل، وكان تعبير ذلك الإخفاق في الحركات الصوفية،« فالصوفي يخرج عن النظام الطبيعي للحياة..إنه ينتحر بوسائل الروح[1].» إنه الهروب من الواقع المادي إلى عالم مثالي ينشد فيه الإنسان السعادة والانعتاق من عالم المادة، وهذا ما يفسر لنا أويبرر على الأقل اهتمام بعض المستشرقين بالتصوف الإسلامي، وخاصة فرق الباطنية عند الشيعة، وبذلك تبحث أوربا عن ملاذ أو تبرير لإخفاقاتها المادية في الفكر الإسلامي الصوفي، أو يبحثون من جهة أخرى عن مبادئ المسيحية كالحلول، والتثليث، والزهد للتكفير عن الخطيئة...

وقد ظهرت فلسفات جديدة في المجتمعات الغربية كالماركسية والوجودية، أو الفلسفات الروحية، والتي تعبر في اعتقادي عن حالة انفجار لمكبوتات اجتماعية، واقتصادية وأخلاقية في المجتمع الغربي، وحالة قلق وحيرة في العقل والضمير الأوربي، « ولقد صدق تاريخ عصرنا هذا الحكم، فأوربا التي كان عليها أن تهدي سعي الإنسانية، قد اتخذت من مشاعل الحضارة (فتيلا) يحرق بدل أن يضيء، وفي ضوء ما أشعلت من نار أشاعت وهجها في المستعمرات، حتى جارت على أرضها هي، أوربا هذه رأينا الفوضى تنتشر فيها، نفس الفوضى التي أشاعتها في بقية أجزاء الأرض[2]» لأن الأزمة الاقتصادية التي عرفتها أوربا في سنوات الثلاثينيات، والأزمات التي تعرفها اليوم، مثل الركود الاقتصادي والبطالة، والتضخم، والصراع على الأسواق، قد أظهرت بدون مبالغة فشل الحضارة الغربية ومناقضتها للمبادئ التي نادت بها كحضارة عالمية تهدف إلى ترقية الإنسان،

---

[1]- المرجع نفسه، ص40

[2]- مالك بن نبي: **وجهة العالم الإسلامي**، دار الفكر، دمشق، 1985، ص121

وتنادي بالعدالة والحرية والإنسانية، ومن الغريب أن تكون زيادة الإنتاج سببا في الأزمة، ويكون الحل هو التخلص من آلاف الأطنان من المنتوجات والمواد، بينما تموت شعوب أخرى من المجاعة والأوبئة، لأن الغرب أفقرها واستنزف خيراتها.

إن سيطرة عقلية التفوق والاستعمار هي التي أوقعت الغرب في تلك الفوضى، واليوم تظهر جليا أنانية الغرب ومحاولاته المتواصلة لجعل غيره تابعا له، والحقيقة أنه يغير الأقنعة دون أن يتخلص من عقدة الاستعمار، لأنه كثيرا ما يخفي الوجه الباهر للغرب وجوها أخرى بائسة. لهذا اعتقد أن إخضاع الذات لنقد موضوعي أمر ضروري، كما يجب أن ننظر إلى الآخر نظرة موضوعية نقدية، فنحدّد أبعاده ومعطياته التاريخية والحضارية وفق معيار حقيقي، لأن وضع الغرب في حجمه الطبيعي كفيل بحل التناقض الحاصل بين الحقيقة ورؤيتنا لها.

ومما سبق فإن الدعوة إلى استخدام الطريق الذي سلكته أوربا، كما يعتقد كثير من دعاة التغريب، فيه نوع من المغالطة، لأن تمثل كل خطوات الحضارة الغربية يدل على عدم إدراك تميز كل حضارة، فحتى اقتصاديا ليس من الضروري أن يعطي نظاما اقتصاديا نفس النتائج إذا طبقناه على مجموعة إنسانية من حضارة مختلفة منافسة أو منازعة لتلك الحضارة كما في حضارتنا. ولكن هذا لا يمنع من القول بأن هناك نقاطا مشتركة، لا يجب أن نغفلها، وخاصة المتعلقة بالجانب المادي أو التكنولوجي، لأن العقول تتفق على مبادئ العلم ولا تختلف في حقائقه، كما أن لحضارتنا دورا أساسيا في الوصول إلى هذه النتائج العلمية. لأن الحضارة التكنولوجية هي حصيلة جهد الإنسانية أي الحضارات المختلفة، وقد أسهم المسلمون إسهامات واسعة وأساسية، ولأسباب

غير واضحة، قد تكون مقصودة أو غير مقصودة أهمل دور الحضارة العربية الإسلامية إهمالا غير علمي في معظم كتب تاريخ العلوم الطبيعية والحيوية والرياضية المعاصرة التي كتبها الأوربيون، كما أغفلت رياداتهم للبحوث التطبيقية[1].

إن هذا التقزيم المفتعل للدور الحضاري العربي الإسلامي، يخفي في حقيقته نظرة استعلائية، وموقفا عدائيا لا يمكن أن يخدم الحوار الحضاري الذي ينادي به البعض، لأن أسس هذا الحوار يجب أن تتوفر من البداية على أساس من الاحترام المتبادل، والاعتراف بالدور الحضاري للعرب، وعدم تشويه التاريخ العربي الإسلامي وتقديمه لأوربا والعالم على أساس من الموضوعية والنزاهة. لأن ذلك يهدف إلى فهم أشمل وأحسن للأخر سواء أكان الغرب أو العرب دون أن يتطلب ذلك تنازل جانب لجانب آخر عن مقوماته أو قيمه، لأن فهما أشمل وأحسن للآخر يكفي من جهتنا، لإعطاء رؤية حقيقية وصادقة عن حضارتنا، ومن جهة أخرى أي بالنسبة للغرب فالتقليل من التوتر والصراع العسكري، وإعطاء مصداقية للحضارة الغربية، هذا ما نراه في إمكانية الحوار الحضاري الذي لا ينظر للآخرين نظرة احتقار، بل يهدف إلى استثمار إنساني متكامل للإبداع البشري. وهذه العلاقة الصحيحة التي نتصور قيامها بين الحضارتين، رغم أن العلاقة يحكمها اليوم الانفصام، وسيطرة أساليب الحضارة الغربية نتيجة ما يعانيه العالم العربي الإسلامي من تخلف وتأخر حضاري كبير ناتج عن أسباب كثيرة داخلية وخارجية. والعلاقة ما زالت علاقة أحادية التأثير ونمثل نحن في

---

[1]- أنظر حامد صادق سلمان، مرجع مذكور سابقا، ص72

المعادلة العنصر المتأثر الذي لا يؤثر، حيث نعاني من استيراد أساليب الحياة والثقافة والتكنولوجيا، دون أن نكتسب القدرة على إبداعها.

إن عالمنا العربي الإسلامي نتيجة ما اتبعه من استيراد للأشياء، والأفكار فقد السيطرة على بنائه الفكري والحضاري، حيث تداخلت عنده الأشياء والأفكار، ولذلك فهو يعاني كل أنواع الاستلاب نظرا إلى تأثير الغزو الفكري، وقد برزت هذه المعاناة في عدة مشاكل يمكن تلخيصها كالآتي:

على الصعيد الأخلاقي: ويتمثل في تقييم الأشياء بمقياس مادي، وسيطرة الأخلاقيات الغربية على الكثير من الشباب.

على الصعيد الاجتماعي: انتشار ألوان من الفوضى، وعدم احترام القوانين، وانتشار السلوكات الغربية كتفكيك نظام الأسرة، وانتشار الانحراف والجريمة.

على الصعيد السياسي: انتشار أساليب غربية في السياسة، وظهور مفاهيم جديدة، واعتماد النموذج السياسي الأوربي.

على الصعيد الاقتصادي: استخدام الوسائل المستوردة، مما نتج عنه احتقار قيم العمل، وظهور شخصية ضعيفة متهاونة، معتمدة على الغير، مستهجنة لكل ما هو محلي، محتقرة للإمكانيات الوطنية، غير مؤمنة بإمكانية التخلص من التبعية الاقتصادية. وإذا كانت هذه المظاهر تبرز عدم التوازن بين حضارة الغرب وحضارتنا اليوم، فإن ذلك يجعلنا عرضة للمسخ الثقافي الغربي، وإحلال الأنماط الحضارية محل مميزاتها الحضارية، وبالتالي الاندماج القهري في المنظومة الثقافية والإيديولوجية الغربية وبدون شعور حتى تنمحي وتزول كل خصوصياتنا الحضارية. ونشير إلى أن هناك عوامل كثيرة تاريخية وفكرية

واقتصادية باعدت بين الحضارتين العربية الإسلامية والحضارة الغربية، وقد ذكرنا بعض هذه العوامل سابقا، كما أكدت على هذه القطعية أعمال الاستشراق التي نظرت دائما إلى الشرق كعالم مفارق للغرب وموضوع للدراسة، أو ما أطلق عليه (ادوارد سعيد)(1935- ؟):« مشرقة الشرق أي تمثله كغيره مطلقة[1]» ولهذا كان شاعر الاستعمار الإنجليزي (روديارد كبلنغ- Rudyard Kipling) (1865- 1936م) يقول: « الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا[2]» وقد زاد في تأكيد القطيعة الوجود الصهيوني في فلسطين، فإسرائيل ما فتئت تعمل بكل الوسائل على كسب تأييد الغرب، معتبرة نفسها حامية لمصالحه في المشرق العربي. وقد ساهمت الدوائر الإسرائيلية – التي تسيطر على كثير من وسائل الإعلامية الاستشراقية في تحديد وتوجيه الرأي العام الغربي، بإعطائه صورة مظلمة وظالمة عن العالم العربي الإسلامي.

حيث جسدت تلك التدخلات الصهيونية، التي تمتاز بقوة الانتشار الثقافي في الغرب كثيرا من الأوصاف والاتهامات، من بينها أن الإنسان العربي المسلم إرهابي، متخلف، غير عقلاني، شهواني. وأن هذه الصفات ترتبط بالحضارة العربية الإسلامية، التي هي حضارة غيبية، جبرية، غير عقلية...وهي اتهامات استشراقية تبشيرية يعاد الترويج لها بشكل جديد، لتكوين رأي عام غربي معاد لكل ما هو عربي إسلامي.

وأحدث ما تروج له الدوائر الصهيونية اليوم - وعن طريق نشاط مكثف- الميراث اليهودي المسيحي)، وإذا كان هذا التعبير يشير إلى حقيقة تاريخية

1- إدوارد سعيد: الإستشراق، تعريب: كمال أبي ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط2، 1984، ص37

2- لويس عوض: ثقافتنا في مفترق الطرق، دار الآداب، بيروت، ط2، 1984، ص65

ودينية، هي اعتبار التوراة أو العهد القديم جزءا من الكتب المقدسة لديهم، فإنها تحمل إيحاءا خفيا بأن الانتماء المتبادل، والوحدة الثقافية إنما يقومان بين اليهود والمسيحيين وحدهم. وبإيحاء متمم لهذا، وغير معلن يظهر العرب والمسلمون، كنقيض حضاري وثقافي، وديني لهذا الميراث (أو التحالف.)

وهكذا لا يكون اليهودي واليهودية من (الغير) أبدا في العقل والوجدان الغربي، (وهو مسيحي أساسا) بينما يكون العربي والمسلم من وجهة عقائدية، وثقافية على الأقل (غرباء) على هذا الميراث المشترك[1]..

في اعتقادنا أن الترويج لهذا أمر مقصود، ويهدف إلى تحقيق أهداف سياسية، وما يدل على فساد ذلك القول، أن الحضارة الغربية قدمت نفسها دائما على أنها حضارة لها جذور يونانية رومانية مسيحية، وتبنّى كثير من مفكريها موقفا معاديا للسامية.

ومن جهة أخرى نجد أن موقف الإسلام يؤكد على احترام الأنبياء، والديانات السماوية، إلا أن اليهود يتقربون من المسيحيين لأغراض سياسية، ولا يعترفون في نفس الوقت بالإسلام ونبوة محمد عليه الصلاة والسلام، رغم أن كتبهم المقدسة بشرت بقدومه، فقد جاء في القرآن الكريم: (**وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبيّنات قالوا هذا سحر مبين)** (سورة الصف 6)؛ ولكن هذه المحاولات المغلوطة التي يقوم بها اليهود تعمل على تأكيد عملهم المعادي للعرب والمسلمين، فقد حاربوا الأنبياء قديما، وحرفوا الكتب السماوية.

---

[1]- كمال أبو المجد: التغير الثقافي، في ندوة همبورغ، العلاقات بين الحضارتين العربية والأوربية، الدار التونسية للنشر، تونس، 1985،ص357

وليس غريبا أن يحاربوا الإسلام اليوم، بكل الوسائل والطرق، وما يقومون به ضد العرب والمسلمين من اعتداءات متواصلة تدل على الأهداف السياسية والثقافية العدوانية.

الخلاصة: تصحيح العلاقة:

وغني عن الذكر انه في ظل هذه المواقف، والاعتداءات المتكررة التي يقوم بها الغرب على العالم الإسلامي، فإن العلاقة بين الحضارتين تبقى علاقة تأثير أحادي، وتعال واعتداء عسكري، وثقافي مستمر على أمتنا. وعليه فإننا مطالبون فكريا وعلميا وسياسيا بتصحيح هذه العلاقة، وإبراز معالم الحضارة العربية الإسلامية من خلال الوسائل المختلفة، لتصحيح النظرة المجحفة في حق حضارتنا.

وبالتالي نتحمل جزءا كبيرا من المسؤولية، وخاصة من خلال العلماء والمفكرين، ورجال الدعوة، لأنهم أمل الأمة في كشف المغالطات، ونشر المبادئ والأفكار الصحيحة عن الإسلام وحضارته، لدى المسلم وغيره. وخاصة في ظل تطور الوسائل التكنولوجية، من أدوات إعلام واتصال والتي جعلت من العالم قرية صغيرة.

وليس ذلك ببعيد إذا آخلصت النوايا، وبذلت المجهودات، وطوّرت وسائل الدعوة إلى الإسلام، من خلال توفير الأموال لذلك، كتكثيف البحوث والدراسات عن تراث الإسلام باللغات المختلفة، ونشرها في كل المحافل الثقافية العالمية، وتنويع الإنتاج الثقافي الدعوي، والمساهمة في فتح قنوات إذاعية وتلفزية فضائية بلغات مختلفة لهذا الغرض، إذا علمنا التأثير الكبير الذي تحدثه وسائل الإعلام والأفلام في الرأي العام العالمي.

المراجع العربية:

- ادوارد سعيد: الاستشراق. تعريب: كمال أبي أديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط2، 1984.

- البخاري: صحيح البخاري، (9 أجزاء في 4 مجلدات)، المكتبة الثقافية، بيروت، ب ت.

- جلال كشك: الغزوالفكري، دار الشروق، بيروت، ط2، 1975.

- سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، دار الشروق، بيروت، ط9، 1983.

- عبد الله الدفاع: أثر علماء العرب والمسلمين في تطور علم الفلك، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1985.

- لويس عوض: ثقافتنا في مفترق الطرق، دار الأداب، بيروت، ط2، 1984.

- مجموعة من الأساتذة: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية (جزئين)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1985.

- مالك بن نبي، تأملات، دار الفكر، بيروت، 1979.

- ....: وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، 1985.

- يوسف القرضاوي: الخصائص العامة للإسلام، شركة الشهاب، الجزائر، ب ت.

المراجع بالفرنسية:

Christiane Achour : Idéologie coloniale et langue française en Algérie, Ed-ENAP, Alger, 1985.

الندوات والمجلات:

- الخطة الشاملة للثقافة العربية (مجموعة ندوات شاملة) – ثلاثة مجلدات كل مجلد بأقسامه – نشر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الكويت، 1986.

- وقائع ندوة همبورغ: العلاقات بين الحضارتين العربية والأوربية، الدار التونسية للنشر، تونس، 1985.

- دراسات عربية، بيروت، العدد 8/7، سنة 1988.